

تأخر "غودو"، فهل يطول انتظار القدس؟

محمد هلسة، فلسطين

في انتظار غودو هي مسرحية للكاتب الإيرلندي الشهير صموئيل بيكيت، تنتمي للكوميديا العبثية المأساوية، وتدور أحداثها حول رجلين يُدعيان فلاديمير واستراغون ينتظران شخصاً يُدعى غودو لا يأتي أبداً. وفي أثناء انتظارهما، ينخرطان في مجموعة متنوّعة من الحوارات ويقابلان شخصيات مختلفة. ولسوء الحظ، لا يمكن لهما أن يستدلاً أو يتفقا على المكان والزمان المتوقع أن يلتقيا فيه بغودو. إنهما يعرفان فقط أنّ عليهما الانتظار عند الشجرة بلا نهاية، وحين يأخذهما اليأس من الانتظار يفكران بالمكافآت المحتملة للاستمرار في انتظارهما لغودو، فيعودان للانتظار. يبدأ المونولوج متماسكاً نسبياً، لكنّه سرعان ما يذوب مع الإسهاب في الغفلة والاستغفال، خاصّة بعد أن يصل صبي، يزعم أنّه رسول أرسله غودو ليخبر الرفيقين أنّه لن يأتي في ذلك المساء "ولكن بالتأكيد سيأتي غداً"، فينتظر الاثنان غودو مرة أخرى، حتى يفقدا الإحساس بالوقت.

ترك قصة بيكيت في انتظار غودو، التي دخلت الإرث العالمي والإنساني، مساحة لإمكانية تطبيقها على مختلف المواقف، فلكل شخص الحرية في التصرف والافتباس منها والنسج على منوالها، وربما هذا هو السبب في أنّه يمكن إسقاط حبكة في انتظار غودو في سياقات مختلفة تماماً: بدءاً من السجين الذي ينتظر محرّره، إلى انتظار السلام بعد الحروب، أو انتظار المساعدات بعد النجاة من إعصار أو كارثة، إلى انتظار الإعمار بعد وقف إطلاق النار في غزة، وأخيراً، إلى انتظار التحرير والخلص للقدس ومقدساتها! ومع قليل من الخيال، يمكن لمسرحية في انتظار غودو أن تمثّل أيضاً في أروقة السياسة والدبلوماسية المقيتة، بل وخارجها "لقتل الوقت" والمراوغة والتعطيل لتغيير الوقائع على الأرض، بل لقلب وجه المنطقة العربي كلّها في غفلة انتظار غودو. وإن كنّا لا نعرف ما الذي يمكننا توقّعه، فإنّ الولايات المتحدة و"إسرائيل" تقترحان مساراً سياسياً مشروطاً طويلاً ومعقّداً، نُثبت فيه "أهليّتنا واستحقاقنا" وتتركان لخيالنا أن بأخذنا في رحلة طويلة من الانتظار يتحوّل فيها كل شيء عربي حولنا إلى "غير صورته الأصليّة واسمه".

تصوّر مسرحية بيكيت حالة من الانتظار الغامض و"القاسي" كتلك التي نمُرُّ بها اليوم في انتظار ما سيحدث في الأقصى وفي مدينة القدس وفي فلسطين بشكل عام بل في الواقع العربي بشكل أعمّ، أملين بأنّ "غودو العربي الرسمي" سيأتي ربما ليس اليوم، لكن غداً بالتأكيد! إنّها قصة مسرحية مليئة بالمسارات الملتوية الغامضة بين أطراف مختلفة تنتظر شخصاً غامضاً، في مكان غير واضح وفي وقتٍ غير معروف. وكما أنّ أيّاً من مسرحيات القرن

العشرين لم تُثر مثل هذا القدر الكبير من اللفظ الذي أثارته مسرحية في انتظار غودو، كذلك تفعل الوعود التي تُطلقها الولايات المتحدة "لإسباغ" نعمة السلام على الشرق الأوسط، الذي لا شك بأنّه سيُطال الفلسطينيون "طرطوشة" منه وفق التعبير الشعبي. وكما يُناقش فلاديمير واستراغون الأفكار التي تدور في ذهنيهما أثناء فترة انتظار غودو، تُعيد الولايات المتحدة تدوير مواقف "إسرائيل"، التي هي بنات أفكار ننتياهو واليمين الصهيوني الديني، وتناقشها معهم "وحدهم" بصورة مضحكة ومبكية في الآن ذاته، فيما نغيب نحن، الموعودون بثمار انتظار غودو، عن هذا النقاش "المُثمر"!

تكشف مسرحية "في انتظار غودو الأمريكية" عمق أزمة انتظار الخلاص من هذا الاحتلال ومفاعيله القاسية على حاضر المدينة المقدّسة ومستقبلها، بل على مستقبل القضية الفلسطينية برمّتها، ضمن مناخ سوداوي تُغلّفه كوميديا ضعيفة تُسخّر من الجميع بلُغة وحبكة مبتدلة مملّة عديمة الفائدة، يبدو السأم فيها سيّد الموقف. وفيما تستغرق الولايات المتحدة في التفكير والتصرّف بشكل "استعراضى فارغ"، يستمرّ ننتياهو في "الأسرلة" والتهويد والاستيطان، ولا تملك، أيّ الولايات المتحدة، أمامه سوى تذكيرنا بأنّ "علينا البقاء والانتظار"، وبأنّه "حان الوقت للتأكّد من عدم إقدام أيّ شخص على خطوات تُعطل إمكانية التوصل إلى السلام المنشود"، حتى صار "سحب الذرائع" لسان حالنا وشعارنا. إنّه العبت ولا شيء يحدث غير العبت!

تتوالى سرديات ننتياهو والإدارة الأمريكية حول السلام والاستقرار، وتتناسل ضمن ثنائيات السيد والعبد، المُتمثّليّ الحالم والمُعرض المُنفلت، كما نراها من منظور تأمّلي ساخر تُفقد فيه المتابع، بعد كل عرض، الإحساس بالوقت. فلا يعود يذكر كم مرّة أتى مبعوثو الإدارة الأمريكية من قبل مُحمّلين بالوعود، ولا كم مرّة لُوحوا لنا بحلم الدولة والحرية إن نحن "أحسنّا التصرف".

هكذا تمسك إدارة ترامب، كما سابقتها، بخيوط الأحداث التي لم تحدث، وتنسج سلوكاً شديداً الإثارة والتوتّب، يمزج بين أمل ميؤوس منه، ويأس مأمول فيه، ضمن لعبة مسرحية ساخرة. وكما عبت ببيكيت بالوقائع والأحداث إلى درجة المنطق، تحاول الولايات المتحدة أن تُزاوج بين الواقع والتمنّيات في عمل مسرحي سمح يشبه الفكاهة السوداء. يمارس ترامب وإدارته لعبتهما المفضّلة في مغالطة ولع الناس "بالسلام"، عبر ثرثرة غير مفهومة حول فرص وإمكان تحقيق الأمن والسلام الذي لن يأتي. إنّه باختصار نقاش غير مثمر، إذ إنّ الطرفين متباعدان مختلفان، فـ"إسرائيل" لا تهتمُّ إلّا بذاتها وأمنها ومستقبلها، والفلسطينيون، المغلوبون على أمرهم، لا يملكون إلّا انتظار وعود غودو الرسمي العربي الإسلامي.

وحقيقة الأمر، أنّه لا يوجد عند ترامب وإدارته أيّ جديد. فالحدث هو ما لا يحدث، وربما يصبح "ما لا يحدث هو أفضل الأحداث" وفق التعبير الإنجليزي. ذلك أنّ ننتياهو قد لوى عنق الحكاية وتمرّد على حليفه الأمريكي وأخضعه لرغباته. وكذا فعل مع الهيئات والمنابر الدولية التي عطّلها وحقّرها ولم يعد يقيم لها وزناً. وهو ما

أكسبه شهرةً في مجتمع "إسرائيلي" يستمرُّ في قرع طبول الحرب ويطرب لها. لذلك لم يكن غريباً، وفق هذه المقاربة، أن يتحوّل وقف الحرب في غزة وخطة ترامب ومجلس السلام إلى عملٍ مسرحيٍ سمجّ تتندّر حوله جميع المجتمعات والأوساط العامة والشعبية في تعبير مؤلم عن فقدان الأمل في الوصول إلى شيء، فيما لا نملك إلا انتظار "الرّسميات العربية والإسلامية" التي يبدو أنّها لن تصل!

تُعدُّ المسرحيات العبيئية التي لا يحدث فيها شيء على الإطلاق إحدى الوجوه الفنية التي تعكس نظرة الإنسان لما حوله وكيفية تعاطيه معه. وبتدقيق بسيط يمكن ملاحظة مدى عبث ترامب في بناء مسرحيته، وبحثه عن الشكلية الخالية من أيّ معنى، فلا حدث ولا حبكة ولا منطق. ومع ذلك يريد أن يمنحنا في النهاية إحساساً بالتفاؤل المبني على أن "لا شيء يحدث ولكن لا شيء سيظلُّ في مكانه"، وهو ما نسميه في الدارجة العربية "في الحركة بركة!" وحين نتحرّك، فإننا، في أحسن أحوالنا، نسير "خلف الحمير" وفق تعبير الكاتب اليميني محمد العمراني في مجموعته القصصية **نحن والحمير في المنعطف الخطير!** التي شملت قصصاً ساخرة من واقع حافل بالتناقضات، وتحدّث فيها عن معاناة أهل قريته الذين اعتادوا نقل مياه الشرب على الحمير من عين ماء بعيدة. وكان لا بدّ لهم أن يسلكوا، في طريقهم إليها، منعطفاً خطراً بجانب وادٍ سحيق، تسبّب بوفاة عدد من الأطفال نتيجة سقوطهم مع الحمير في الوادي. على مدى عقود، كان وجهاء قرية الكاتب يجتمعون في منزل أحدهم يناقشون موضوع المنعطف وكيفية إيجاد حلٍّ لمشكلته دون جدوى. وعندما سألتهم الكاتب، الذي تعرّض أكثر من مرّة للسقوط في الوادي حين كان طفلاً يرافق الحمار إلى العين: "لماذا لا تسلكون طريقاً آخر آمناً للوصول إلى العين؟" فوجئ بإجابة مفزعة: "نحن نمشي خلف الحمير، وهي التي تسلك بنا تلك الدرب." ولعلّ توافق مواقف الرسمية العربية والإسلامية "النمطية المتكرّرة" فيما يخصّ الصراع العربي "الإسرائيلي" وعود الإدارات الأمريكية المتلاحقة، مع مواقف أهل القرية المذكورة، هو ما دفعنا، بألم، إلى تبنيّ هذه المقاربة الساخرة في تعامل العرب مع "إسرائيل"، بما يشبه تعامل أهل القرية باتباع حميرهم، نظراً إلى النتيجة التي آلت إليها حياتهم، وربما حياة العرب، نتيجة تكرار "تجربة المُجرّب".

من وجهة نظر حكومة "إسرائيل" اليوم، وخاصة بعد أحداث 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023، فإنّ الحلّ المثالي هو "الترحيل الفوري للعرب". ففكرة التعايش مع الفلسطينيين بشكل عام، هي "ثرثرة" تشبه إلى حدّ كبير نظرة الزعيم الصهيوني العنصري كاهانا، الذي قال عن الحياة مع العرب: "لا يمكن التعايش مع السرطان". بالنسبة إليهم، فإنّ "الطريق" لحلّ الصراع "الإسرائيلي" —الفلسطيني هو طرد الفلسطينيين من "إسرائيل الكبرى"، وهو مسار جديد "انقلابي" يتجاوز أنماط التعامل "الإسرائيلي" القديمة "الهادئة" نسبياً مع الصراع العربي —"الإسرائيلي"، وهو الذي تنتهجه حكومة نتنياهو اليمينية. هذا السلوك الصهيوني سيؤدّي عربياً، وقد ترك له الجبل على غاربه، إلى المساس بالحقوق العربية الإسلامية والإضرار بها، وإلى التباس الوعي والإحباط النفسي لدى شرائح واسعة من المجتمع الفلسطيني والعربي أيضاً، نتيجة كسر حواجز ما اعتادت "إسرائيل" تسميته "المحافظة على الوضع القائم" في كل قضايا الصراع العربي —"الإسرائيلي"، وعلى رأسها المسجد الأقصى والقدس، وبما قد يهيئه هذا "الكسر" من مناخات محيطة في الواقع العربي.

لذا لا يجوز، فلسطينياً وعربياً، الاستمرار في استخدام الأدوات "النضالية" القديمة ذاتها للتعبير عن العلاقة السائدة بين "إسرائيل" من جهة والفلسطينيين والعرب من الجهة الأخرى، في ظلّ المتغيّرات الجديدة التي حدثت، ولا تزال تحدث، في "إسرائيل" بعد وصول اليمين العنصري إلى الحكم وما فعله خلال الثلاث سنوات الماضية، بل يجب ترسيخ إطارٍ سياسي يتوافق مع "مقتضيات المرحلة" من خلال تغيير مفاهيمنا وأدواتنا واستراتيجيتنا النضالية لتكون قادرين على مواجهة "فضايا صراع عسكري" ناتجة من "نزاع حول الأرض"، وليس صراعاً على حاجات إنسانية ومطالب خدمتية من الاحتلال. يجب أن توضّح المسارات والأدوات النضالية الجديدة أننا أمام "حالة" تدرك التداعيات "المحلية الإقليمية والدولية" للموقف من حكومة نتنياهو ومدى خطورتها، إذ يأتي تغيير الأدوات بهدف منع "تطويعنا" وإقناعنا بمواجهة الحقيقة وتقبُّل الواقع كما هو، ليتحقّق لِن غفير واليمين الصهيوني الفاشي ما يريد. في الواقع، إنّ تغيير أدوات ومسارات النضال في الصراع "الإسرائيلي" —الفلسطيني هو ما نحتاجه لنمضي قدماً في مشروعنا التحرّري، والأهمّ ألا تأتي عفويةً، بل أن تعبّر عن عدم الاستسلام "للعجز" الذي يراد له أن يصيبنا ويطوّقنا.

يجب أن نمتنع عن أن تساهم ثقافتنا السياسية والحزبية في إعادة إنتاج الأنماط والمسارات القديمة الفاشلة ذاتها في التعامل مع "الواقع الصهيوني الجديد" الذي يتجاوز حدود "المألوف"، ومنها موقف اليهودية القومية الدينية من المسجد الأقصى على وجه الخصوص، وفلسطين والعرب على وجه العموم. لم يعد خافياً عن أحد ما يجري من استهداف لقيمنا وحقوقنا، واستخفاف واضح يارثنا التاريخي الديني في القدس وغيرها. إنّ التغيير هو استراتيجية مهمة وواضحة لا بدّ من انتهاجها للكشف عن الأدوات القديمة التي لا يحتاج بعضها إلى تعديلٍ فحسب، بل اجتثاث من الجذور أيضاً، ذلك أننا لا نريد نقل الخيبة من زمانٍ إلى آخر لنبقى، للأسف، نراوح مكاننا دون أيّ انعكاسات إيجابية على قضيتنا التي نتمنّى أن تتقدّم ويعلو شأنها لتقودنا إلى التحرّر والانعقاد من الاحتلال.

إنّنا بحاجة إلى تحرير أنفسنا من قيم عجز الرسمية العربية البالية التي تحمل في مضامينها الانكفاء وتمجيد الفشل ورفض التعايش معها تحت أيّ ظرف، فجلاً ما يتمنّاه العرب، العاجزون اليوم، هو أن "يضرب الله الظالمين بالظالمين" وأن "يُخرجنا من بين أيديهم سالمين"، أو "أن يجعل تدميرهم في تدبيرهم!" وهي كنايات فاضحة عن العجز الفاضح. صحيح أنّ الدُعاء سلاح المؤمن في جميع أوقاته، وهو أصل العبادة، وأشارت السنة النبوية إلى مكانته وأهميته، وهو عبادة سهلة يستطيع كل إنسان القيام بها، لكن دعاء "قلّة الحيلة والضعف" في الحالة العربية الراهنة ليس نابعاً من ضعف بنيوي مفروض، إنّما هو ضعف طوعي اختارته وقبلته الأمة لنفسها بينما هي تمتلك الجيوش الجرّارة، وتعتجّ ترساناتها بالأسلحة والمعدّات والبوراج والطائرات، وتملك إمكانات اقتصادية هائلة، ونفطاً وغازاً واستثمارات، وجماهير بالملايين... لكنّ كلّ شيء مُعطّل مع سبق الإصرار والعمد، شعوباً وأنظمة. فلا خيول للعرب ليركبوها ولا سيوف لهم ليشهروها، فسوفهم حطب وخيولهم خشب.

نعم، نريد استراتيجية أكثر قدرة على التعامل مع المتغيّرات الحالية من حولنا، لكن هذه الحاجة إلى سياسة

جديدة ليست مسؤولية الأنظمة وحدها، ولا مسؤولية الأحزاب والنخب فحسب، إنّما هي مسؤولية مشتركة بين الدول والأحزاب، بل والأفراد. وإلاّ فإننا سنستمرّ في السقوط من المنعطفات الخطرة في الوادي السحيق نفسه الذي سقط فيه سكان القرية اليمينية وهم يكرّزون أتباع حميرهم! ولعلّ عريدة "إسرائيل" واعتداءاتها المتكرّرة على سورية واليمن وقطر، والحرب التي تشنّها اليوم على إيران ولبنان هي في المحصّلة، نتيجة للصمت العربي بل اللامبالاة المُقعدة. فليس هناك أمة من الأمم تمرّغت كرامتها بالتراب والحضيض، كما يحدث مع الأمة العربية اليوم، فلا شيء نتقنه سوى التفرقة والحروب البينية، فأمددنا كل من عادانا بالقوة، بسبب تفرّقنا وضعفنا وتمذهبنا، وركضنا خلف التفاهات الطائفية والمذهبية والمناطقية.

وفي الوقت الذي تُعربد فيه "إسرائيل" وتنتهك وتقتل في بعض غرف الدار العربية، يختبئ غالبية الأشقاء العرب، كلٌّ في غرفته يقف وراء بابهِ ينظر ويتفرّج ويسمع ويرى "ويدعو". يقف الأشقاء بغالبيتهم لا يحركون ساكناً، هذا إن لم يتعاونوا ويعترفوا ويُطَبِّعوا ويصالحوا العدو نفسه الذي يقتل أشقائهم، في فلسطين ولبنان وسورية واليمن. للأسف، لم يُحدِث موقف الأمة العربية من المقتلة التي جرت في غزة الفارق في لحظة تاريخية فارقة تعيشها، ولم تضع مصلحتها ومقدراتها ومستقبلها بعين الاعتبار، فجاءت مُواقفها، الرسمية والشعبية، حول ما يجري ترسيماً للعجز العربي، الذي وصل مستويات لا تقبلها الفطرة السوية لأيّ مخلوق على وجه البسيطة.

علينا جميعاً أن نعي أنّ "إسرائيل دولة" لها حلمها الاستعماري للمنطقة، ولديها مشروعها الصهيوني لاستعادة "أرض إسرائيل"، وهذا الضعف العربي والهوان والعجز والاستسلام والاكتفاء في مقاعد الفُرجة لهذه الفضاءات الرهيبة، والإبادة الجماعية التي تتمدّد وتتسع من مدينة عربية وإسلامية إلى أخرى، دون أن يحرك أحد لها ساكناً، لهو حقاً محنة العرب الكبرى ومصيبتهم العظمى. إنّنا لن نُهزم أمام "إسرائيل" إلاّ إذا هيمنت علينا القابلية للهزيمة في داخلنا أولاً، واستسلمنا لشعار: "ليس في الإمكان أكثر مما كان". فهل نعي بأنّ الهزيمة تبدأ أولاً من دواخلنا وقابليتنا للهزيمة؟

وأخيراً، يبدو أنّه أمام الزمن ورتابته المؤلمة، والحرب وحطامها، وأسئلة متى وكيف وأجوبتهما، والعجز حتى عن التفكير في إمكان الوصول إلى نهاية لحروب "إسرائيل" التدميرية وأطماعها التوسعية... أمام هذا كلّه لا يوجد إلاّ الانتظار، الانتظار كنوع من أنواع الفعل، الذي نجزم بأنّه الوسيلة الوحيدة البائسة المتبقية لدى الرسمية العربية والإسلامية في انتظار أن يأتي الفرج أو أن يأتي أحدٌ ما به

